المستوى الدلالي

كل المستويات اللغوية السابقة من أصوات، وأبنية صرفية وأنساق تركيبية لا بد من أن تكون حاملة للمعاني أي "الدلالات"، وقضية الدلالة من أقدم ما شغلت به الحضارات من قضايا أسهم في دراستها الفلاسفة، واللغويون، والبلاغيون، وعلماء الأصول من العرب وغيرهم، ويعد البحث الدلالي محورًا من محاور علم اللغة الحديث.

نظرية السياق

السياق بناء نصي كامل من فِقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة. ودائماً ما يكون سياقُ مجموعة من الكلمات وثيقَ الترابط بحيث يلقي ضوءاً لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها.

أي إن السياق هو جوهر المعنى المقصود في أي بناء نصي أو كلامي، فهو لا يلقي الضوء على الكلمة والجملة فحسب، وإنما على النص المكتوب والكلام المجمل عن طريق علاقة المفردات بعضها ببعض في أي سياق من السياقات المختلفة.

عرفت مدرسة لندن بما سمي بالمنهج السياقي أو المنهج العملي. وكان رائدُ هذا الاتجاه هو "فيرث" الذي أكد الوظيفة الاجتماعية للغة.

ومعنى الكلمة عند أصحاب نظرية السياق هو (استعمالها في اللغة)، أو (الطريقة التي تستعمل بها) أو (الدور الذي تؤديه).

فمثلاً كلمة (دم) في العاميات العربية: دمه فار– دمه يغلي– دمه ثقيل– دمه خفيف– دمه حار– دمه بارد. تلاحظ في كلمة (دم) في كل سياق وردت فيه من تلك السياقات يلوح معنى جديد ومختلف عن غيره.

ولهذا يصرح رائد نظرية السياق فيرث بأن المعنى لا ينكشف إلا عن طريق تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة. بمعنى أن الكلمة المفردة لا معنى لها إلا إذا وضعت في سياق جملة.

ويقول أصحاب هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم: (معظم الوِحْدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى. وإن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفُها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها).

ركز أصحاب نظرة السياق على السياقات اللغوية التي ترد فيها الكلمة وضرورة البحث عن الكلمة عن طريق ارتباطها بكلمات أخرى وبسبب ذلك أدى إلى نفيهم أن يكون الوصول إلى معنى الكلمة وغايتها عن طريق النظر إلى المشار إليه أو وصفه أو تعريفه.

وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي. ومعنى الكلمة –على هذا– يتعدد تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها أو بعبارة أخرى تبعاً لتوزعها اللغوي.

أنماط السياق:

تتطلب دراسة معاني الكلمات عند أصحاب نظرية السياق تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي. ولذلك اقترحوا تقسيماً للسياق بأربع شعب. وهذا التقسيم الذي اقترحوه كالآتي:

النمط الأول: السياق اللغوي: هو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة، عندما تتساوق مع كلمات أخرى، مما يكسبها معنى خاصاً محدداً. فالمعنى في السياق هو بخلاف المعنى الذي يقدمه المعجم، لأن هذا الأخير متعدد، في حين أن المعنى الذي يقدّمه السياق

اللغوي هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محددة غير قابلة للتعدد أو الاشتراك أو الإعمام.

فعندما ترد كلمة ((عين)) في العربية – وهي من المشترك اللفظي – في سياقات لغوية متعدِّدة يتبين للدارس ما تحمله من معان مختلفة باختلاف كلِّ سياق ترد فيه. إنَّ كلَّ سياقٍ آتٍ ترد فيه كلمة ((عين)) يقدِّم معنىً واحداً تتجه إليه الأفهام وتترك ما سواه، فلا يقع أيّ اشتراك في السياق، فقولنا:

عين الطفل تؤلمه: العين هنا هي الباصرة.

في الجبل عين جارية: العين هي عين الماء.

العين الساحرة وسيلة لمعرفة الطارق: العين تدلُّ على منظار حديث يركب في الباب.

هذا عين للعدوّ: العين هنا الجاسوس.

ذاك الرجل عين من الأعيان: العين هنا السيِّد في قومه.

النمط الثاني: السياق العاطفي: هو الذي يحدد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية – التي تفيد العموم – ودلالتها العاطفية – التي تفيد الخصوص– فيحدد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيداً أو مبالغةً أو اعتدالاً. كما تكون طريقة الأداء الصوتية كافية لشحن المفردات بالكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية؛ كأن تُنطَق وكأنها تمثِّل معناها تمثيلاً حقيقياً. ولا يخفى ما للإشارات المصاحبة للكلام في هذا الصدد من أهمية في إبراز المعاني الانفعالية.

أولاً: من ناحية طبيعة استعمال الكلمة في دلالتها العامة ودلالتها العاطفية الخاصة:

إذ نرى أن في استخدام لفظتي **استغلال واستثمار** تبايناً، فالأولى تحمل قيماً أسلوبية سلبية في حين الثانية إيجابية. بالرغم من أنهما مترادفان، فالأولى تشير إلى أخذ غلة والثانية أخذ ثمرةً.

وهكذا أيضاً لفظة ((كلب)) وما تحمله من قيم عاطفية متباينة. فعند الطفل هو لعبة، وعند المرأة التي تصلي هو نجس، وعند الفتاة هو الذي يشكل الخوف من نباحه، وعند الصياد هو الفرح الأكبر بحفلة الصيد. وهكذا فمستخدم هذه اللفظة يُسبغ عليها من عاطفته، عندما ترد على لسانه، محملة بما تفيض به نفسُه من انفعالات.

النمط الثالث: سياق الموقف: يدل هذا السياق على العلاقات الزمانية والمكانية التي يجري فيها الكلام. وقد أشار اللغويون العرب القدامى إلى هذا السياق، كما عبَّر عنه البلاغيون بمصطلح (المقام). وقد غدت كلمتهم: (لكلِّ مقام مقال) مثلاً مشهوراً.

إن مراعاة المقام تجعل المتكلم يعدل عن استعمال الكلمات التي تنطبق على الحالة التي يصادفها خوفاً أو تأدباً. بل قد يضطر المتكلم إلى العدول عن الاستعمال الحقيقي للكلمات فيلجأ إلى التلميح من دون التصريح.

ما ورد على لسان الأحنف بن قيس حين سأل معاوية بن أبي سفيان عن رأيه في أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد ولده مع أنه لم يكن محمود السيرة في الناس، فقال الأحنف قولته المشهورة: (أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت)، فكانت كنايتُه أبلغَ من التصريح وأقدرَ على أداء المعنى من التوضيح.

الحقول الدلالية

يُعدّ دى سوسير رائد هذا الاتجاه عندما لفت الانتباه إلى ما أسماه بالعلاقات الاتحادية التي توجد بين عدة وحدات كلامية، مثل كلمات: يخشى، ويشكك، ولديه خوف.

ومن ثم عُرِف المجال الدلالي بأنه مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع تحت لفظ عام يجمعها، أو مجموعة من الكلمات المتقاربة التي تتميز بوجود عناصر أو ملامح دلالية مشتركة، وقد عرّف أولمان المجال الدلالي بأنه: قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبر. وعرفه جون ليونز بأنه: مجموعة جزئية لمفردات اللغة.

وبناء على ما سبق فإن معنى الكلمة وفقاً لهذه النظرية يُحَدّد على أساس علاقتها بالكلمات الأخرى المجاورة لها، أو عن طريق مجموعة الكلمات المتقاربة التي تملك علاقة تركيبية، ومثال ذلك كلمات الألوان في العربية؛ فهي توضع تحت اللفظ العام (لون) وتضم ألفاظاً مثل: أحمر وأبيض وأزرق وأصفر وأخضر.

وتعتمد هذه النظرية على الفكرة المنطقية التي تقول بأن المعاني لا توجد منعزلة الواحد تلو الآخر في الذهن، بل لابد لإدراكها من ارتباط كل معنى منها بمعان أخرى؛ فلفظ إنسان الذي نعده مطلقاً لا يمكن أن نعقله إلا بالإضافة إلى كلمة حيوان مثلاً، ولفظ رجل لا يمكن أن نعقله إلا بالإضافة إلى لفظ امرأة، ولفظ حار لا يفهم إلا بالإضافة إلى لفظ بارد؛ فلا بد من بحث الكلمة مع أقرب الكلمات إليها في إطار مجموعة واحدة، وعلى سبيل المثال فإن الكلمات التي تمثل التقديرات الجامعية (ممتاز، جيد جداً، جيد، مقبول، ضعيف، ضعيف جداً) لا يمكن فهم إحداها إلا في ظلال الكلمات التي قبلها أو بعدها.

فهدف التحليل في ضوء هذه النظرية الدلالية هو جمع كل الكلمات التي تخص مجالاً معينا والكشف عن صلاتها، كل منها بغيرها، وصلاتها جميعا باللفظ العام مثل اتحاد الكلمات التي تشير إلى الحيوانات النافعة، واتحاد الكلمات التي تدل على السكن، واتحاد الكلمات الاقتصادية.

وإذا كان العلماء العرب القدماء قد تنبهوا إلى نظرية السياق فإنهم أيضاً تنبهوا إلى نظرية المجال الدلالي، وسبقوا بها الأوروبيين بعدة قرون، وإن لم يعطوها اسمها المعاصر،

ولعل الرسائل اللغوية التي قاموا بتصنيفها تعد نماذج تطبيقية لنظرية الحقول الدلالية والنواة الأولى لمعاجم المعاني، وقد اقتصر بعضها على حقل دلالي واحد مثل: (خلق الإنسان، الإبل، والخيل، والشاء، والنبات، والمطر)، واشتمل بعضها على أكثر من حقل دلالي مثل: غريب المصنّف لأبي عبيد الذي يعد أول معجم دلالي تعرفه العربية؛ فهو مرتب بحسب المعاني أو المفاهيم، وكتاب المنجّد لكُراع النمل؛ إذ اشتمل على ستة حقول دلالية تناولت أعضاء جسم الإنسان، وكلمات الحيوان وكلمات الطيور، وكلمات السلاح وأنواعها، وكلمات السماء وما فيها، وكلمات الأرض وما عليها.

التغير الدلالي

تُعد دراسة التّغير الدّلالي المحور الرئيس للدّرس الدّلالي الحديث، فقد كان أهم ما شغل علماء اللّغة موضوع تغيّر المعنى، وصور هذا التّغير، وأسباب حدوثه، والعوامل التي تتدخل في حياة الألفاظ وموتها، إذ يرون أنّ دلالة المفردات هي أكثر جوانب اللّغة عُرضة للتّغير، فظهور المفردة للمرة الأولى يكون لها معنى معين، ومع مرور الزمن يتغيّر هذا المعنى نسبيًا أو كليًا، والمعروف لدى علماء اللغة أنّ الكلمة الواحدة تخضع في نشأتها وتطورها إلى عدّة عوامل، فقد يتوسع معناها أو يضيق أو يتغيّر تماماً.

مظاهر التّغير الدّلالي

١. تغيّر الدّلالة بالاتّساع (تعميم الدّلالة): أي تعميم الخاص، ويتم ذلك بتوسيع معنى اللّفظ ومفهومه أو نقله من معنى الخاص الدّال عليه، إلى معنى أعم وأشمل، وبه تصبح الكلمة تدل على عدد من المعاني أكثر مما كانت تدل عليه من قبل أو تدل على معنى أعم من معناها الأول. ومن أمثلته: كلمة (السيارة) كانت في الماضي تعني القافلة، ولكن توسع في معناها، وأصبحت تدل الآن على

وسيلة النقل المعروفة. وكلمة (قطار) تدل عل قطار الإبل تشدّ على نسق واحد خلف واحد، وتوسع في معناها لتدل على قطار السّكة الحديديّة.

٢. تغيّر الدّلالة بالتّضييق (تخصيص الدّلالة): وهو ضد التّوسيع، وهم تخصيص العام أو تخصيص مجال الدّلالة وتحويلها من المعنى الكلي إلى المعنى الجزئي، ويسمى أيضاً بتقليص الدّلالة، والتّخصيص يعني قصر المعنى العام على بعض أفراده، وتضييق شموله، وذلك أنّ مدلول الكلمة يتغير تبعًا للحالة التي يكثر فيها استخدامها، كما أنّ دلالة الكلمة التي كانت تدل على معانٍ كلية عامة لتصبح تدل على معنى خاص. ومن أمثلته: كلمة (الحج) إذْ كانت تعني القصد، فيقال: حج فلان أي قدم، وحججت فلانًا أي: قصدته، ثم استقر بها في القصد إلى مكة للنّسك، والحج إلى البيت خاصة. وكلمة (الحرمة) بعد أن كانت تطلق على كل محرم لا يمس، ثم صارت تدل فقط على المرأة.

٣. انحطاط المعنى: فكثيرًا ما يصيب الدّلالة بعض الانهيار أو الضعف، فتراها تفقد شيئا من أثرها في الأذهان، أو تفقد مكانتها بين الألفاظ التي تنال من المجتمع الاحترام والتّقدير، ومن أمثلته: كلمة (الحاجب) التي كان لها دلالة سامية في أثناء حكم العرب بالأندلس، ثم انحطت في العصر الحديث، وأصبحت تستعمل الآن في معنى الخادم أو حارس الباب. وكان معنى (اليد الطويلة) السخاء والكرم، ثم صارت تدل على السارق فيقال: فلان يده طويلة أي سارق.

٤. رقي المعنى: فكما يحصل انحطاط في بعض دلالات الألفاظ يحصل هناك رقي، ولكنه أقل حدوثاً وشيوعاً من الانحطاط، ويسمى هذا النوع من التطور بسمو الدلالة أو التغير المتسامي. ومن أمثلته: كلمة (رسول) التي كانت تدل على من يرسل في أي أمر كان عظم أو تفه، لكن عندما جاء الإسلام أخذت مفهومًا ساميًا، فأصبحت تدل هذه الكلمة على الشخص الذي أوحي إليه برسالة وأمر

بتبليغها. وكلمة (القماش) كانت تدل على ما يتناثر من متاع البيت أو ما على الأرض من فتات الأشياء، ثم أصبحت تدل على نوع من النّسيج المتقن الصنع.

٥. انتقال المعنى: وهو تحويل دلالة اللّفظ من مجال آخر على غير وجه الخصوص أو العموم، ويتم ذلك عن طريق المجاز أو الاستعارة أو الكناية، ومن أمثلته: لفظة (الشّنب) إذ كانت تعني في السابق صفاء الأسنان، وجمال الثّغر، ثم استعملت حديثًا بمعنى الشّارب. ولفظة (الجمل) وانتقالها من الدّلالة الحسيّة إلى الدّلالة المجردة، إذ انتقلت من دلالتها على الإبل إلى الدّلالة على الجمال في الأشياء المتعددة.